(ابن قُدامة المقدسيّ)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله العظيم، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبارُ العلماء العاملين، والحكماء الصالحين، والمجاهدين المتقين تغرسُ الفضائلَ في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكارِه في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكاياتُ جندٌ من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الثالثة عشرة من سلسلة (أعلام من الشام) التي أحدّثكم في كل خطبةٍ منها عن واحدٍ من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبةً من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطانين: نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وعن الإمامين: الأوزاعي وابن كثير، وعن الحافظين: الذهبي والمزّي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرّخِ دمشقَ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في خطبتين، وعن شيخ الإسلامِ الإمام النوويُّ، وحديث اليوم عن شَيْخ الإِسْلاَم:

(مُوَفَّق الدِّيْنِ ابنِ قُدَامَةَ المَقْدِسِيّ)

بداية: المقادسة قوم خيِّرون جاؤوا من الأرض المقدَّسة –القدس وما حولها– ونزلوا كِراماً على كثير من البلاد الإسلامية، ونالت الشام منهم حظاً وافراً، ولما شَرُفت بهم دمشق ما أرادوا أن يضيقوا على أهلها لُطفهم وأدبهم، فنزلوا خارج باب شرقي في مسجد اسمه مسجد أبي صالح، ثم انتقلوا إلى سفح جبل قاسيون فعُرِفَت محلَّة "الصالحية" بهم، فقيل لها "الصالحية" نسبة إلى مسجد أبي صالح.

يومها لم يكن في قاسيون من العمارة شيء، فعمَرها المقادسة ورعوها، بنوا فيها المسجد الجامع جامع الحنابلة إذ كانوا على مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه، وبنوا فيها مدارس العلم والشَّرع؛ من ذلك: "المدرسة العمرية" الماثلة إلى اليوم في حي الصالحية مقابل جامع الحاجبية، واعتنوا بدُورها وحوانيتها.

واحتفى بهم أهلُ الشام وأحبّوهم، وكانوا لهم أنصاراً إذ كانوا هم المهاجرين، سمّوا المنطقة "الصالحية" نسبة إليهم، وسموا الجبل "جبل الصالحين"، ويحدّثنا كبار السِّنّ فينا أن الشامي كان إذا أراد الخروج من دمشق القديمة داخل السور متّجها شمالاً نحو جبل قاسيون جبل الصالحين ووصل بوابة الصالحية خلع نعليه ومشى حافياً إكراماً للصالحين الساكنين فيه، وتبرُّكاً واعتقاداً بهم.

طبتم وطاب مسعاكم يا أهل الشام، هكذا أنتم تحتفون بالضيف وتغيثون اللهفان وتنصرون الضعيف وتحملون الكل، أبشروا، فوالله لا يخزيكم الله أبداً!

أتذكرون سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما نزل عليه جبريل بـ (إقرأ) وأصابه الخوف، ماذا قالت له السيدة خديجة؟

قالت: (أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنَّك لتصل الرَّحِم، وتصدُق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق).

كتب الشيخ عبد الغني النابلسي في دمشق يقول:

إن سامك الخطب المهول فأقلَقا فانزل بأرض الشام وانزل جلَّقا

تجد المرام بها وكلَّ مناك بل وترى بها عزا وتفصُحُ منطقا

هي صفوة الدنيا وشائع فضلها بالقدس والحرمين أضحى ملحَقا

زاد السرور بها لكل معرّجٍ لاسيما إن كان من أهل التقى

خير الأناس أناسها يرعون أنـ ـواع الوداد ويحفظون الموثقا

واليوم –يأهل الشام– إن عضكم نابُ الزمان وسافرتم أعزَّةَ نفسٍ إلى بلاد قريبة أو بعيدة فما أحسن القومُ وِفادتكم ولا ردّوا شيئاً من جميل صنيعكم معهم فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإن لكم الأجر مدّخراً عند باريكم، وسيثيبكم به في الدارين فرجاً قريباً –بإذن الله–، وسَعة في الأرزاق والأخلاق، وجنةً –من فضله– عرضها السموات والأرض، ويومئذ يفرح المؤمنون.

شَيْخ الإِسْلاَمِ، مُوَفَّق الدِّيْنِ، ابنِ قُدَامَةَ المَقْدِسِيّ:

هو أَبُو مُحَمَّدٍ، عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ، الجَمَّاعِيْلِيُّ، ثُمَّ الدِّمَشْقِيُّ، الصَّالِحِيُّ، الحَنْبَلِيُّ.

مَوْلِدُهُ: بِجَمَّاعِيْلَ، مِنْ عَملِ نَابُلُسَ، هَاجَرَ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَقَارِبِهِ وَلَهُ عشرُ سِنِيْنَ، وَحفظَ القُرْآنَ، وَلَزِمَ الاشتغَالَ بالعلم مِنْ صِغَرِهِ، وَكَتَبَ الخطَّ المَلِيْحَ، وَكَانَ مِنْ بُحُوْرِ العِلْمِ، وَأَذكيَاءِ العَالَمِ.

رَحَلَ فِي طَلَبِ العِلْمِ إِلَى بَغْدَادَ، وِالمَوْصِلِ، وِمَكَّةَ، وغيرها، فدرس التَّفْسِيْر، وَالحَدِيث والفِقه، والأصول، والفَرَائِض، والنَّحْو وَالحسَاب. حتى صار إماماً فيها، ثم عاد إلى دمشق ليكون إِمَامَ الحَنَابِلَةِ بِجَامِعِها.

قالوا عنه: كَانَ غزِيرُ الفَضْلِ، نَزِهاً، وَرِعاً، كَثِيرُ العِبَادَةِ، دَائِمَ التَّهجُّدِ، عَلَيْهِ النُّوْرُ وَالوَقَارُ، يَنْتفعُ الرَّجُلُ برُؤِيتِهِ قبْلَ أَنْ يسمع كَلاَمَهُ.

خصَّهُ اللهُ بِالفَضْلِ الوَافرِ، وَالخَاطرِ المَاطرِ، وَالعِلْمِ الكَامِلِ، طَنَّتْ بذِكرِهِ الأَمصَارُ، وَضنَّتْ بِمِثْلِهِ الأَعصَارُ.

وكان –رضي الله عنه– مُتَوَاضِعاً، ذا أَنَاةٍ وَحلمٍ وَوقَارٍ، قَدْ جَبَلَهُ الله عَلَى خُلُقٍ شَرِيْفٍ، وَأَفرغَ عَلَيْهِ المَكَارِمَ إِفرَاغاً، وَكَانَ لاَ يَكَادُ يرَاهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَحَبَّه.

مَجْلِسُهُ معمورٌ بِالفُقَهَاءِ وَالمُحَدِّثِيْنَ، ويصلي الفجر ويذكر الله ثم يشتغل بالعلم إِلَى ارْتفَاعِ النَّهَارِ، ثم يمضي لداره للنظر في شؤونه وشؤون أهله، ثم يعود للعلم مِنْ بَعْدِ الظُّهْرِ إِلَى المَغْرِبِ

قَالَ أحد تلامذته: كَانَ حَسَنَ الأَخْلاَقِ، لاَ يَكَادُ يرَاهُ أَحَدٌ إِلاَّ مُتَبَسِّماً، يَحكِي الحِكَايَاتِ، وَيَمزحُ، ومَا رَأَيْتُ أَكْثرَ احتمَالاً مِنْهُ.

وَقال آخر: كَانَ الشَّيْخُ فِي القِرَاءةِ يُمَازِحُنَا، وَيَنبَسِطُ، وَكَلَّمُوْهُ مرَّةً فِي صبيَانَ يَشتغلُوْنَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: هُم صبيَانٌ، وَلاَ بُدَّ لَهُم مِنَ اللَّعِبِ، وَأَنْتُم كُنتُم مِثلهُم.

صَنَّفَ أكثر من عشرين مصنفاً، أشهرها كتاب (المغني) في الفقه الحنبلي جاء في عشر مُجَلَّدَاتٍ، يعتبره العلماء من أهم الكتب التي أُلِّفَت في الفقه المقارَن بوجه عام وفي الفقه الحنبلي بوجه خاص، قال فيه العز بن عبد السلام: ما رأيت من كتب الإسلام مثل المحلَّى لابن حزم وكتاب المغني للشيخ موفَّق الدين في جودتها وتحقيق ما فيها.

وإلى كل ذلك كان الشيخ ابن قدامة هو وأخوه الشيخ محمد وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها.

كانت وفاة الشيخ ابن قدامة المقدسي في يوم عيد الفطر سَنَةَ عِشْرِيْنَ وَسِتِّ مائَةٍ، وقد بلغ الثمانين، وحضر جنازته خَلْقٌ كثير، ودُفِن بتربته المشهورة في جبل قاسيون، ورُئيت له منامات صالحة رحمه الله تعالى، وكان له أولاد ذكور وإناث، فلما كان حياً ماتوا في حياته.

نقل سبط ابن الجوزي من خط الشيخ موفَّق رحمه الله تعالى:

لا تجلسنَّ بباب من ... يأبى عليك وصول داره

وتقول حاجاتي إليْ ... ـهِ يعوقها إن لم أداره

واتركه واقصد ربها ... تُقضَى وربِّ الدار كاره

أيها الإخوة:

بعد أن عرضتُ عليكم شيئاً من سيرة الشيخ ابن قدامة المقدسي –رحمه الله– أخلص إلى نتيجة تفيدنا جميعاً إن كنا ممن يريد أن ينهج نهجه ويقتفي أثره لننال منزلته ومكانته؛ إذ إني وجدتُ الشيخَ مشغولاً بأربعة كانت سبباً في رفعته:

(العِلم، والعبادة، والخُلُقُ الحَسَن، والجهاد في سبيل الله).

فمهما ازددتَ عِلماً أرضَيت ربَّك، ومهما حافظت على أورادك استزدتَ من إمداده، ومهما حسَّنت خُلقَك فقد أغظتَ عدوَّك، ومهما جاهدت في سبيل الله زاد قربك من الله.

رحم الله شَيْخَ الإِسْلاَمِ، مُوَفَّق الدِّيْن، ابن قُدَامَةَ المَقْدِسِيّ، وأجزَلَ مَثوبته، وجعلنا وذرياتنا على نهجه وطريقته.

والحمد لله رب العالمين